ورقة ورد(١)

« وضعنا كتابنا «أوراق الورد» في نوعٍ من الترسُّل لم يكن منه شيءٌ في الأدب العربيِّ على الطَّريقة التي كتبناه بها ، في المعاني التي أفردناه لها ؛ وهو رسائل غراميَّة ، تطارحها شاعرٌ فيلسوفٌ ، وشاعرةٌ فيلسوفةٌ على ما بيَّناه في مقدِّمة الكتاب . وكانت قد ضاعت «ورقة ورد» وهي رسالة كتبها ذلك العاشق إلى صديقٍ له ، يصف من أمره ، وأمر صاحبته ، ويصوِّر له فيها سحر الحبِّ كما لمسه ، وكما تركه ، وقد عثرنا عليها بعد طبع الكتاب ، فرأينا ألا ننفرد بها . وهي هذه : »

. . . كانت لها نفسٌ شاعرةٌ من هذه النُّفوس العجيبة ؛ التي تأخذُ الضِّدَّين بمعنًى واحدٍ أحياناً ، فيَسُرُّها مرَّةً أن تحزنها ، وتستدعيَ غضبها ، ويُحزنها مرَّةً أن تسرَّها ، وتبلغَ رضاها ، كأن ليس في السُّرور ، ولا في الحزن معانٍ من الأشياء ، ولكن من نفسها ، ومشيئتها .

وكان خيالها مشبوباً ، يُلقي في كلِّ شيءٍ لمعانَ النُّور ، وانطفاءَه ، فالدُّنيا في خيالها كالسَّماء ؛ التي ألبسها اللَّيلُ ، مُلئت بأشيائها مبعثرةً مضيئةً خافتةً كالنُّجوم .

ولها شعورٌ دقيقٌ ، ويجعلها أحياناً من بلاغة حِسِّها ، وإرهافه كأنَّ فيها أكثرَ من عقلها ، ويجعلها في بعض الأحيان من دِقَّة هذا الحس ، واهتياجه كأنَّها بغير عقل . . .

وهي ترى أسمى الفكر في بعض أحوالها ألا يكونَ لها فكرٌ ؛ فتترك من أمورها أشياءَ للمصادفة ، كأنَّها واثقةٌ أنَّ الحظَّ بعضُ عُشَّاقها ، على أن لها ثلاثةَ أنواعٍ من الذَّكاء . في عقلها ، وروحها ، وجسمها ؛ فالذَّكاءُ في عقلها فَهمٌ ، وفي روحها فِتنةٌ ، وفي جسمها . . . خَلاعةٌ .

وكنت أراها مَرِحةً مستطارةً(٢) ممَّا تطرَبُ ، وتتفاءل ، حتَّى لأحسبُها تودُّ أن

---

(١) انظر سبب إنشاء هذا الفصل في « عود على بدء » من كتابنا : « حياة الرافعي » . (س) .

(٢) « مستطارة » : استطار الشيء : انتشر ، وتفرَّق .

يخرجَ الكون من قوانينه ، ويطيش . . ثمَّ أراها بعدُ مُتضَوِّرة[1] مهمومةً تحزن ، وتتشاءم ، حتَّى لأظنُّها ستزيد الكونَ همَّاً ليس فيه ! .

وكانت ـ على كلِّ الأحوال المتنافرة ـ جميلةً ظريفةً ، قد تمَّت لها الصُّورة الَّتي تخلق الحبَّ ، والأسرارُ ؛ الَّتي تبعثُ الفتنةَ ، والسِّحرُ ؛ الذَّي يُميِّز روحها بخاصِّيتَها الفاتنة كما تتميَّز هي بوجهها الفاتن .

* * *

وكان حبِّي إيَّاها حريقاً من الحبِّ . فمثِّل لعينيك جسماً تناول جِلدهُ مَسٌّ من لهبٍ ، فتسَلَّع هذا الجلدُ[2] هنا وهناك من سَلخ النَّار ، وظهر فيه من آثار الحروق لهبٌ يابسٌ أحمر ، كأنَّه عروقٌ من الجمر انتشرت في هذا الجسم . إنَّك إنْ تمثَّلتَ هذا الوصف ثمَّ نقلته من الجلد إلى الدَّم ؛ كان هو حريقَ ذلك الحبِّ في دمي !

والحبُّ إن كان حبّاً لم يكن إلا عذاباً ؛ فما هو إلا تقديمُ البرهان من العاشق على قوَّةِ فعل الحقيقة ؛ الَّتي في المعشوق ، ليس حالٌ منه في عذابه ، إلا وهي دليلٌ على شيءٍ منها في جَبَروتها .

ولقد أيقنتُ : أنَّ الغرام إنَّما هو جنونُ شخصيةِ المحبِّ بشخصية محبوبه ، فيسقُطُ العالمُ ، وأحكامُه ، ومذاهبه ممَّا بين الشَّخصيَّتين ، وينتفي الواقعُ ؛ الَّذي يجري النَّاس عليه ، وتعودُ الحقائق لا تأتي من شيءٍ في هذه الدُّنيا إلا بعد أن تمرَّ على المحبوب لتجيءَ منه ، ويُصبح هذا الكونُ العظيم كأنَّه إطارٌ في عين مجنونٍ ، لا يحملُ شيئاً إلا الصُّورةَ التي جُنَّ بها !

وتالله لكأنَّ قانون الطَّبيعة ألا تحبَّ المرأة رجلاً يسمَّى رجلاً ، وألا تكون جديرةً بمُحبِّها إلا إذا جرت بينهما أهوالٌ من الغرام ، تتركها معه كأنَّها مأخوذةٌ في الحرب . . . تلك الأهوال يمثِّلها الحيوانُ المتوحِّشُ عملاً جسمياً بالقتال على الأنثى ، ثمَّ ترقُّ في الإنسانِ المتحضِّر فيمثِّلها عملاً قلبيّاً بالحبِّ . . .

* * *

---

(١) « متضورة » : تضوَّر : تلوَّى ، وصاح من وَجَع ضربٍ أو جوع ونحوهما .

(٢) أي : تشقَّق ، وتسلَّخ .

أحببتُها جُهدَ الهوى حتَّى لا مَزيد فيه ، ولا مطمع في مزيدٍ ، ولكنَّ أسرارَ فتنتها استمرَّت تتعدَّدُ . فتدفعُني أن يكون حبِّي أشدَّ من هذا ؛ ولا أعرف كيف يمكن في الحبِّ أشدُّ من هذا ؟

ولقد كنتُ في استغاثتي بها من الحبِّ كالَّذي رأى نفسَه في طريق السَّيْل ففرَّ إلى ربوَةٍ عاليةٍ في رأسها عقلٌ لهذا السَّيل الأحمق ، أو كالَّذي فاجأه البركانُ بجنونه ، وغِلظَتِه ، فهرب في رقَّة الماء وحِلمه ؛ ولا سيل ، ولا بركان إلا حُرقتي بالهوى ، وارتماضي[1] من الحبِّ .

أما والله ! إنَّه ليس العاشق هو العاشق ، ولكنْ هي الطَّبيعة ، هي الطَّبيعة في العاشق .

هي الطَّبيعة بجبروتها ، وعَسْفِها ، وتعنُّتِها ، إذا استراح النَّاس جميعاً ؛ قالت للعاشق : إلا أنت . . .

إذا عقلَ النَّاس جميعاً ؛ قالت في العاشق : إلا هذا . . . !

إذا برأت جِراح الحياة كلُّها ؛ قالت : إلا جَرْح الحبِّ . . . !

إذا تشابهت الهمومُ كالدَّمعة ، والدَّمعة ؛ قالت : إلا هَمَّ العشق . . . !

إذا تغيَّر النَّاس في الحالة بعد الحالة ؛ قالت في الحبيب : إلا هو . . . !

إذا انكشف سرُّ كلِّ شيءٍ ؛ قالت : إلا المعشوق ؛ إلا هذا المحجَّب بأسرار القلب . . . !

* * *

ولمَّا رأيتها أوَّل مرَّةٍ ، ولمَسني الحبُّ لمسة ساحرٍ ؛ جلستُ إليها أتأمَّلها ، وأحْتسي من جمالها ذلك الضِّياءَ المُسكِر ؛ الَّذي تُعَرْبِدُ له الرُّوح عربدةً كلُّها وقارٌ ظاهرٌ . . . فرأيتني يومئذٍ في حالةٍ كغشية الوحي ، فوقها الآدميَّة ساكنةً ، وتحتها تيار الملائكة يعُبُّ ، ويجري .

وكنت ألقَى خواطر كثيرةً ، جعلت كلَّ شيءٍ منها ، وممَّا حولها يتكلَّم في

---

(١) « ارتماضي » : ارتمض فلان من الأمر : اشتدَّ عليه فأقلقه . وارتمض لفلان : حَزِن له .

نفسي ، كأنَّ الحياة قد فاضت ، وازدحمت في ذلك الموضع ؛ الذي تجلس فيه ، فما شيءٌ يمرُّ به إلا مسَّته ، فجعلته حيّاً يرتعش ؛ حتَّى الكلمات .

وشعَرت أول ما شعرتُ : أنَّ الهواء ؛ الذي تتنفس فيه يرقُّ رِقَّة نسيم السَّحر ، كأنَّما انخدع فيها ، فحسِبَ وجهها نور الفجر !

وأحسست في المكان قوَّةً عجيبةً في قدرتها على الجذب ؛ جعلتني مُبعثراً حول هذه الفتَّانة ؛ كأنَّها محدودةٌ بي من كلِّ جهةٍ .

وخُيِّل إليَّ أنَّ النَّواميس الطَّبيعيَّة قد اختلَّت في جسمي إمَّا بزيادةٍ ، وإمَّا بنقصٍ ؛ فأنا لذلك أعظُم أمامها مرَّةً ؛ وأصغُر مرَّةً .

وظننت : أنَّ هذه الجميلة إنْ هي إلا صورةٌ من الوجود النِّسائي الشَّاذِّ ؛ وقع فيها تنقيحٌ إلـهيٌّ لتظهِرَ الدُّنيا كيف كان جمال حوَّاءَ في الجنَّة .

ورأيت هذا الحسْن الفاتن يُشعِرُني بأنَّه فوق الحسن ؛ لأنَّه فيها هي ؛ وأنَّه فوق الجمال ، والنُّضْرة ، والمرَح ؛ لأنَّ الله وضعه في هذا السُّرور الحيِّ المخلوق امرأةً .

والتمستُ في محاسنها عَيْباً . فبعدَ الجُهد قلتُ مع الشاعر :

« إذا عِبْتُها شبَّهتها البدرَ طالعاً . . . ! »

* * *

ورأيتها تضحك الضَّحِك المستحي ؛ فيخرج من فمها الجميل كأنَّما هو شاعرٌ أنَّه تجرَّأ على قانون . .

وتبسم ابتساماتٍ تقول كلٌّ منها للجالسين : انظروها . . . ! انظروها . . . !

ويغمرُها ضِحك العين ، والوجه ، والفم ، وضحكُ الجسم أيضاً باهتزازِه وتَرجْرُجه في حركاتٍ ، كأنَّما يبسم بعضها ، ويُقهقِه بعضها . . .

وتلقِي نظراتٍ جَعل الله معها ذلك الإغضاءَ ، وذلك الحياء ؛ ليضع شيئاً من الوقاية في هذه القوَّةِ النِّسْويَّة ، قوَّة تدمير القلب .

وهي ـ على ذلك ـ متساميةٌ في جمالها ، حتَّى لا يتكلَّمَ جسمها في وساوس النَّفس كلام اللَّحم ، والدَّم ، وكأنَّه جسمٌ ملائكيٌّ ليس له إلا الجلال طوعاً أو

كزْهاً ، جسمٌ كالمعْبَد ، لا يَعرف مَن جاءه : أنَّه جاءه إلا ليبتهل ، ويخشع .

وتطالعك من حيث تأمَّلتَ فكرة الحياة المنسجمة على هذا الجسم ، تطلب منك الفهم ، وهي لا تُفهَم أبداً ؛ أي : تريد الفهم ؛ الَّذي لا ينتهي ؛ أي : تطلب الحُبَّ ؛ الَّذي لا ينقطع .

وهي أبداً في زينة حسنها كأنَّها عروسٌ في معرِض جَلْوتها ، غير أنَّ للعروس ساعةً ، ولها هي كلُّ ساعة .

* * *

أمَّا ظرفها ؛ فيكاد يصيح تحت النَّظرات : أنا خائفٌ ! أنا خائفٌ !

ووجهها تتغالبُ عليه الرَّزانةُ ، والخِفَّة ، ولتقرأ فيه العينُ عقلها ، وقلبَها .

وهي مِثلُ الشِّعر : تُطرِبُ القلب بالألم ؛ الَّذي يوجَدُ في بعض السُّرور ، وبالسُّرور ؛ الَّذي يُحَسُّ في بعض الألم .

وهي مِثلُ الخمر : تحسبُ الشَّيطانَ مترقرِقاً فيها بكلِّ إغرائه !

وكلَّما تناولتْ أمامي شيئاً ، أو صنعتْ شيئاً ؛ خلقت معه شيئاً : أشياؤها لا تزيد بها الطَّبيعة ، ولكن تزيد بها النَّفس .

فيا كَبداً طارت صُدُوعاً من الأسى . . !

* * *

ورأيتني يومئذٍ في حالةٍ كغَشيةِ الوحْي ، فوقها الآدميَّةُ ساكنةً ، وتحتها تيَّارُ الملائكةِ يَعُبُّ ويجري .

* * *

يا سِحْرَ الحب ! تركتَني أرى وجهَها من بَعدُ هو الوجه ؛ الَّذي تضحكُ به الدُّنيا ، وتعبسُ ، وتتغيَّظ ، وتتحامق أيضاً . .

وجعلتَني أرى تلك الابتسامة الجميلةَ هي أقوى حكومةٍ في الأرض . . !

وجعلتني يا سحرَ الحبِّ . . . ! وجعلتني يا سحرَ الحبِّ مجنوناً . . . !

* * *